الجارم الشاعر

للأستاذ عبد الجواد سليمان

وعدت القراء أن أعود إليهم على صفحات الرسالة الغراء لنجول جولة مع الجارم فى شعره علنا نعطى صورة ولو تقريبية لمقدار حظه من هذه الموهبة الشعرية التى يكبها الله فى قلوب بعض عباده فيلهمون القول ، ويتفجرون بفيض من الحكمة يصوغونه نظما شعريا يتفاوتون فى بلاغته تفاوتا يخضع لنصيب كل شاعر من التهيؤ والملكة وسعة الإطلاع ، فإن الشعر عاطفة وفكرة ، وإحساس وخيال ، أو هو كما عرفه بعض الغربيين بأنه (الحقيقة التى تصل إلى القلب رائعة بوساطة العاطفة) أو هو (عرض البواعث النبيلة بوساطة الخيال) :

أو هو كما يقول الجارم نفسه : —

الشعر عاطفة تقشاد عاطفة ... وفكرة تتجلى بين أفكار
الشعر إن لامس الأرواح ألهبها ... كما تقابل تيار بتيار
الشعر مصباح أقوام إذا التمسوا ... نور الحياة وزند الأمة الوارى
الشعر أنشودة الفنان يرسلها ... إلى القلوب فيحيا بعد إقفار

والباحث فى شعر الشاعر لن يصل إلى نتائج صحيحة أو يأتى بحثه قريبا من كبد الحقيقة إلا إذا كان « ديوان الشاعر » أمامه لايفارقه لحظة ، يقلب صفحاته ، ويتنقل بين قصائده وينعم النظر بين أبياته ، ويطيل التأمل والوقوف عند كل معنى من معانيها مراعيا فى تقديره وإصدار أحكامه للشاعر أو عليه كل ما أحاط به من ظروف وملابسات خاصة وعامة عند ما نظم قصيدته ؛ ومقدراً المناسبة التى قالها فيها والغرض الذى يرمى إليه ، ثم يخلص من ذلك إلى الجمع بين المتشابه ، والتأليف بين المتقارب ، ثم يستنبط جمعه ما هو بصدد الوصول إليه من حقائق عامة ونظريات أدبية هامة ، ويسوق من شعر الشاعر الشواهد التى تؤيد دعواه ، ومن أقوال النقاد السابقين أدلة تدعم قضاياه .

والجارم فى ثقافته وسط بين المدرسة القديمة التى يمثلها القدامى من أدباء دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى وهما مشتقتان من مصدر الأزهر : وهذه المدرسة القديمة ترتكز فى دراستها على القرآن وحديث الرسول والآثار القديمة من دواوين الشعراء فى عصور العربية الزاهرة ، وكتب الناقدين من أضراب عبد القاهر وابن رشيق والآمدى والعسكرى وغير هؤلاء ؛ والمدرسة الحديثة التى يمثلها الأعلام ممن تعلموا تعليما مدنيا وجنحوا فى دراستهم إلى الآداب الغربية ينهلون من حياضها ممن هم على شاكلة لطفى السيد وقاسم أمين وفتحى زغلول ومن سار سيرتهم واهتدى بهديهم .

فجاء الجارم فى شعره حلقة الاتصال بين المدرستين ، ينظم فى الحوادث الجلى والمناسبات التاريخية فتسمع له شعرا فيه الطابع البدوى والموسيقى العربية ، والألفاظ المنتقاة فتخاله رجعيا قديما وتحسبه ما يقول الا مارا ، ثم لاتابث أن تسمعه ثانية فتسمع شاعرا متصرفا فى شعره ساميا فى خياله فتلمح روح العصر قد بدا ناطقا فى قصائده مرئيا من أبياته .

موزعون على الجزائر التى تعمها المسرات المتنوعة موافقة حسب ما يشاءون وما يلذ لهم لإتمام هنائهم فيها . وكل جزيرة فردوس أعد للأبرار الأطهار من بنى البشر . فهلا تستحق هذه المساكن يا ميرزا النضال للفوز بها؟ وهل تبدو الحياة مفعمة بالتعاسة وهى تعطى هذه الفرص لنيل مكافأة كهذه؟ وهل الموت مخيف وهو الذى يحملك إلى هذه الحياة الطليقة التى لا يعكر صفوها كدر؟ فلا تحسب أن الإنسان خلق سدى ، وفى انتظاره تلك الحياة السرمدية . وعلقت فى تلك الجزر وقلبى مفعم بسعادة لايحدها حد . وأخيراً رجوته أن يكشف لى عن السر الذى يكمن خلف الغيوم التى تحجب الطرف الآخر من صخرة الماس . فلم يجبنى الجنى فالتفت بعد لحظة إليه لأكلمه فلم أجده ؛ واستدرت إلى المنظر الذى تأملته ذلك الوقت الطويل فرأيت بدلا من التيار الموار وأعمدة الجسر والجزر السعيدة وادى بغدات [1] المريض تمر فيه الثيران وقطعان الغنم والجمال ترعى الكلأ فى دعة واطمئنان .

(١) لعل الكاتب يقصد مدينة بغداد ، ولكنها غير واقعة على جبال كما توهمها .

بغداد — صالحة النقشبندى

فهو مثلا فى إحدى مدائحه الملكية تبدو عليه آثار المدرسة القديمة وتأثره بمنهج القدماء من الشعراء عند ما يقول : —

أقبس الروح من شعاع الراح والثم الحسن فى جبين الصباح
وابعث اللحن من سمائك ياشـــــعر ونافس به ذوات الجناح
وانهب الحسن من خدود العذارى وامرق السحر من عيون الملاح

إلى أن يقول : —

إيه ياشعر أنت سلطان فى الدنيا إذا ضاق بى فسيح البراح

وفى مثل هذه المناسبة وفى قصيدة أخرى يطل عليك الجارم من مدرسته الحديثة فتبدو على شـــعره سمات الثقافة الغربية ودراسته الحديثة فيقول فى الفاروق : —

هو الأمل البسام رف جناحه فطارت به من كل قلب بلابله
هو الكوكب اللماح يسطع بالمنى وتنطق بالغيث الغميم مخايله
ترى بسمة الآمال فى بسماته وتلمس سر النبل حين تقابله
يفديه غصن الروح ريان ناضرا إذا اهتز فى كف النسائم مائله

فإن الأمل البسام ، وطيران البلابل من القلوب ، وسطوع الكواكب بالمنى ، وبسمة الآمال وإهتزاز الغصن المائل فى كف النسائم ، وجريان (النسائم) على هـذا الوزن فى الجمع كلها من التعبيرات العصرية ، ووليدة اصطلاحات المدرسة الحديثة فى اتجاهات دراستها .

والجارم فى كل شعره أو على الأقل فى الغالب الكثير منه لا تكاد تفارقه هذه الصفة التى يمثل فيها مدرستى الأدب القديمة والحديثة ويصل بينهما ما يكاد ينقطع .

وهناك صفة أخرى يتميز بهـا الجارم فى شعره ، تلكم هى (قدرته على التصرف) فى نظمه فى مختلف الأغراض ، ولعله اكتسب هذه الميزة من كثرة ما قرأ وطول ما توفر على الدراسة والبحث مع حسن استعداد وصفاء طبع وإدامة النظر فى أشـعار من سبقوه ، ولن تكفى مطلقا لخلق شاعر حسن التصرف كثرة القراءة وحدها إذا أكثر من المكثرين القراءة ، ولكن ما أقل من نجده من بينهم قد توافرت له أداة حسن التصرف فى القول ؛ بل لابد أن يعزز كثرة القراءة نهيؤ من خيـال خصيب وذوق سليم وطبع صاف على نحو ما قال الجرجانى (إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون القريحة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان) أو على نحو ما يقول بكر بن النطاح (الشعر مثل عين الماء إذا تركتها اندفنت وإن استهتنتها هتنت) وكما يقول أحمد حسن الزيات فى كتابه (دفاع عن البلاغة) (آلة البلاغة الطبع الموهوب والعلم المكتسب) .

فالجارم الذى يجود خياله بصورة للحرب العظمى تمج بالدماء وتتطاير فيها الأشـلاء فتشبع منها العقبان فى البر والحيتان فى البحر ، وتعبر عنها هذه الأبيات : —

طاحت بأهل الغرب نار الوغى وهبت الريح بهم زعزعا
طاف عليهم بالردى طائف فاخترم الأنفس لما سـعى
وصاح فيهم للنوى صـائح فصمت الأسماع مذ سمعا
قد فصت الأرض بأشلائهم وأصبح البحر بهم مترعا
وآن للعقبان أن تكتفى وآن للحيتان أن تشبعا

— هو نفسه الجارم الذى يلين ويرق فيسيل ظرفا وحلاوة فى لهوه — لحسن تصرفه — فيقول : —

ياسـارقات الصبح طال ليلى فديتكن بعض هـذا الدل
هل جائزى دين الغرام ذلى من لى بأن ألقى الصباح من لى ؟
باللمح أو باللمس أو باللثم

فيكن ذات حسب ودين مشرقة الطلعة والجبين
كأنها إحدى الظباء العين من عاذرى فيهن من معينى
عيل بهـا صبرى وطاش حلمى

حديثها سلافة النديم وخلقها تواضع اليتيم
فديتها من ملك كريم تعرف فيها نضرة النعيم
أنقى وأصفى من نطاف الغيم

وإن المعانى التى تتضمنها هذه الأساليب (سارقات الصبح ، دين الغرام ، طاش حلمى) من المعانى البديعة المبتكرة التى تدل على حسن تصرف الشاعر . وإن تشبيه الحديث بسلافة النديم والخلق بتواضع اليتيم ، من التشبيهات الجليلة الرائعة .

وهو نفسه الجارم الذى يبكى أمير الشعراء (شوقى) ويصور

لجيمة مصر والشعر فيه تصويراً تسمو فيه مقدرة الجارم على التصوير الشعرى فيقول : —

مات يا طير صادح تسجد الط ... ير إذا رجع الصدى تحنانه
نبرات تخالها صوت دارو ... د بلفظ تخاله تبيانه
مات شوق وكان أنفذ سهم ... صائب الرمى من سهام الكنانه
أبك للشمس فى السماء أخاها ... وإبك للدهر قلبه ولسانه
وابكه للنجوم كم سامرته ... مالئات نوحيها آذانه
وابك للروض واصفا يخجل الرو ... ض إذا هز باليراع بنانه
وابكه للخيال صفوا نقيا ... إنه كان فى الورى ترجمانه
ملأ الشرق موت من ملأ الشر ... ق حياة وقوة وزكانه

ثم ينتقل بحسن تصرفه — من تصوير هول المصيبة بوفاة شوق وخسارة مصر والشرق العربى فيه ، إلى تصوير قومية شوق وحبه لمصر وتعلقه بكل ما هو مصرى من نيل وخضرة وشمائل ، وأنه يعشق من أجل مصر النيل والجزيرة وجسر اسماعيل وعين شمس و ... و ... فيقول : —

كان صبا بمصركم هام شوقا ... برباها وبثها أحزانه
دفن اللهو والصبا فى ثراها ... وطوى من شبابه عنفوانه
هى بستانه تفرد فيه ... وحبا كل قلبه بستانه
يحرس الفن فى ظلال نواحيه ... ويرى عن دوحه غربانه
يعشق النيل والشمائل تهـ ... ـتز بشطيه خضرة ولدانه
يعشق النيل والجزيرة تغريـ ... ـه وقد لف حولها أردانه
يعشق الجسر والفضاء تهفو ... حوله كالحمائم الظمآنة
ويحب السواد من عين شمس ... مالئا من رواته أجفانه

ثم يطلع علينا الجارم بعد ذلك بصورة جديدة — دون أن يعدم سمة الحيلة وحسن التصرف — يصور فيها شوقا إماما لمن ينشدون الخلود ومثلا أعلى لمن يتوقون إلى حسن الذكرى وطيب الأحدوثة يحتذ به كل من تصبو نفسه إلى ذلك فيقول :

هكذا كل من يريد خلودا ... يجعل الكون كله ميدانه
هكذا فليسر إلى المجد من شا ... ء ويرفع بذكره أوطانه

ثم يلم بأخلاق شوقى فى أبيات ستة يجمع فيها مكارم الأخلاق التى يتسابق أعزاء الرجال فى تحصيلها لنزداد بها عزتهم حصانة وقوة فيقول : —

خلق كالندى وقد نقط الزهـ ... ـر فحلى وشى الرياض وزانه
وصبا يملأ الزمان ابتساما ... وحجا يملأ الزمان رزانه
وسماح يلقى الصريخ بوجه ... تحسد الشمس فى الضحى لمعانه
شمم فى تواضع وحياء ... فى وقار وفطنة فى لقانه
وحديث حلوله روعة الشعر ... فلو كان ذا قوافٍ لكانه
يبقين الله ماسه الضعف ... ولا طائف من الشك شانه

ثم ينتقل بعد ذلك — وعماده حسن تصرفه — إلى مناجاة شوقى فى حنان شعرى وأسف على فراقه ودعاء له من قلبه مع اعتذار واعتبار قائلا : —

أيها الراحل الكريم لقد كنـ ... ـت سواد العيون أو انسانه
نم قليلا فى جنة الخلد وانعم ... برضا الله واغتنم غفرانه
كيف يوفى الشعر الذى ملك الشعـ ... ـر وألقى لغيره أوزانه
ورثاء البيان جهد مقل ... للذى خلد الزمان بيانه

نهج من المناهج القويمة السليمة رسمه الجارم بطبعه الشعرى الأصيل وسار عليه فكان موفقا فيما نظم من قصيد . أليس هو النهج الذى رسمه عبد العزيز الجرجانى للشاعر وأوصاه بالتزامه ليسلم من الزال فقال (ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحدا ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعانى ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستعتابك ولا هزلك بمنزلة جدك . . . بل ترتب كلامك مرتبته وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف المديح تصرف مواقعه، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز من المدح باللباقة والظرف؛ ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ؛ فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه) .

عبد الجواد سليمان

المدرس بمعلمات سوهاج